

المرافعة فناً وعلماً أشهر المرافعات في تاريخ ليبيا
القديم والجديد

الأستاذ/ عمران محمد بورويس
المحامي

الفهرس

رقم الصفحة

١	تمهيد
٢	صور المحاماة عند العرب
٥	أشهر المرافعات في تاريخ ليبيا القديم والحديث
٥	١. دفاع "أبوليوس" في محاكمته الشهيرة بمدينة صبراتة الليبية عام ١٥٨ بعد الميلاد
٦	٢. قضية إبراهيم سراج الدين (١٨٨٢-١٨٩٢)
٧	٣. محاكمة رمضان السويحلي التي بدأت بطرابلس عام ١٩٠٩ وانتهت بجزيرة رودس
٨	٤. محاكمة شيخ المجاهدين عمر المختار (١٩٣١)
١٠	بعض المراجع العلمية الأساسية للبحث

تمهيد

الحديث عن المرافعة يستدعي منا أن نعرّج على مهنة "المحاماة" في لمحة تاريخية موجزة كتمهيد لهذا الموضوع. حيث تعتبر المحاماة من أقدم المهن التي عرفها الإنسان، فهي قديمة جداً، وإن لم تكن معروفة بهذا الاسم، فقد جاءت نتيجة لتطور فن وعلم الخطابة لدى الإغريق، فهي وثيقة الصلة بالخطابة منذ نشوئها، وما تزال.

ولذلك قيل بأن "أثينا هي مدرسة المحاماة الأولى"، ولذلك يمكن لنا أن نقول بأنها - أي المحاماة - نمت في أحضان الحرية والديمقراطية وترعرعت معها. وقد وصفها فولتير بأنها "أسمى مهنة في الوجود" ووصفها أهرنج بأنها "وظيفة في خدمة المجتمع" فقد كان أفلاطون خطيباً وله مؤلف عن الخطابة قام بترجمته إلى العربية المرحوم أ.د. عبد الرحمن بدوي. وكان اختيار المدافع بالمحاكم الشعبية هي نواة نشوء مهنة المحاماة عند الإغريق.

والمقصود هنا بالمحاماة، المحاماة الحقّة، المحاماة الرسالة.. مهنة النجدة والمروءة والجرأة في قول الحق والشجاعة في مقارعة الظلم والفساد.

وقد برز تعبير أو اصطلاح "المحامي" و"المحاماة" في عهد الإمبراطور الروماني جوستينيان سنة ٥٢٧ بعد الميلاد، إذ أطلق عليها تعبير (ORDO). وبالإطلاع على مدونة جوستينيان في الفقه الروماني - التي نقلها إلى العربية المرحوم أ. عبد العزيز فهمي - نجد أنه ورد ببابها العاشر من كتابها الرابع عنوان "الاستتابة في التقاضي"، كما تضمنت أيضاً بعض القواعد منها القاعدة رقم (٢٦) التي تقرر بأن: "مهمة الدفاع جديرة بكل ثناء.. أنها من ضرورات الاجتماع والقائمون بها يجب مكافأتهم بكل سخاء".

ولكن نشأة المحاماة في روما تمتد إلى قانون الألواح الاثني عشر عام ٤٥٠ ق.م الذي اعترف بمهنة المحاماة. لقد استعمل الرومان مصطلح المحامي (ADVOCATES) وقصدوا به أول الأمر المدافع وأن يكون من رجال القانون، ثم صار المدافعون يعهدون بالمرافعة إلى شخص يطلقون عليه مصطلح (PARTONUS) الذي تميّز بمعرفته للقانون وبإجادته للخطابة. ثم اندمجت المهنتان - المساعدة (المدافعة) والمرافعة - معاً ليقوم بها شخص واحد وتمخض هذا الدمج عن ظهور مصطلح جديد هو (CAUSIDICUS) الذي أصبح يطلق على المحامي في عهد الإمبراطورية.

صور المحاماة عند العرب

كانت القبائل العربية تستعين في حل منازعاتهم فيما بين أفراد القبيلة الواحدة، أو فيما بين القبائل، بمن يروونه أقدر وأبلغ في عرض وجهة النظر والدفاع عنها، وكان يسمى "حجاجاً" أو "حجيجاً" أي قوي الحجة. وكانت الصيغة المتعارف عليها عندهم هي أن يقال للرجل ((وضعت لساني في فمك لتجاج عني)) أو ((فلان حجّاج عني)). وكان شعراء القبائل العربية أسنة الناس ومحاميهم لأن المحاماة القديمة اعتمدت على الخطابة في أداء مهمتها. والمرافعة هي فن وعلم .. فن أولاً وعلم ثانياً.

فالمرافعة بالنسبة لمهنة المحاماة تنقسم إلى قسمين رئيسيين:

* المرافعة الشفهية: إن هي إلا خطبة قضائية.

* المرافعة التحريرية: أي المذكرات، مذكرات الدفاع.

وهو المعمول به بالمحاكم الوطنية والدولية (ومنها محكمة العدل الدولية بلاهاي. حيث قسمت لائحها الداخلية المرافعات أمامها إلى مذكرات مكتوبة أولاً يقدمها الخصوم في مواعيد محددة ثم المرافعات الشفهية حيث تختم بها إجراءات الدعوى المنظورة أمامها أو الرأي الاستشاري). والمرافعات التحريرية أي مذكرات الدفاع هي أيضاً فن وعلم.. وهي لغة كتابة لا لغة حديث أو مخاطبة. ونجد بالحياة العملية زملاء لنا يجيدون ويبدعون في المرافعات الشفهية وفي المذكرات المكتوبة معاً. وقد نجد زملاء لنا يجيدون ويبدعون في المرافعات الشفهية وحدها وآخرين تخصصوا في إعداد المذكرات (المرافعات) المكتوبة، وكلاهما من متطلبات مهنة المحاماة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن قدماء المصريين (الفراعنة) كانوا يرفضون السماح بالمرافعات الشفهية أو الخطابة القضائية. فكان المشتكي يقدم دعواه مكتوبة ويرد عليها المدعي عليه كتابة ثم يدرس القضاة الثلاثة الشكوى والردود ثم يصدرون أحكامهم. وكان من أسباب رفض المصريين القدامى للمرافعات الشفهية اعتقادهم بأن الخصوم يلقون بمرافعتهم ظلاً كثيفاً على الحق، ذلك أن براعة الخطباء وسحر بيانهم ودموع المتهمين تدفع الكثيرين إلى التغاضي عن صرامة القانون وقوة الحق، وأن النقاضي عن طريق الكتابة يحقق محاكمة دقيقة وعادلة، يضاف إلى ذلك أن نظام الحكم في ذلك الوقت كان ملكياً استبدادياً. فالفرعون هو الإله الأعلى، والحكم إقطاعي والتفاوت الطبقي واضح وكل هذه عوامل لم تكن تساعد على الجرأة في الدفاع الشفهي أو ازدهار الخطابة. ولكن نظام المذكرات المكتوبة الذي عرفه قدماء المصريين ما زال معروفاً في الوقت الحاضر لا سيما بالنسبة للقضاء العالي (المحكمة العليا أو محكمة النقض أو محكمة التمييز).

كما يقتضينا الحديث عن المرافعة فناً وعلماً.. أن نتطرق إلى الحديث بإيجاز عن فن الإلقاء (الخطابة القضائية). وهو فن النطق بالكلام على صورة توضح ألفاظه ومعانيه. وتوضيح اللفظ يتأثر بدراسة الحروف الأبجدية في مخارجها وصفاتها وكل ما يتعلق بها لتخرج من الفم سليمة كاملة لا يلتبس منها حرف بحرف. وتوضيح المعنى يتأتى بدراسة الصوت الإنساني في معانده وطبقاته دراسة موسيقية تتيح للدارس أن ينغمه بما يناسب المعنى فتبدو المعاني واضحة مبنية جميلة الوقع على أذان السامعين. والأصول الأولى للإلقاء لدى الشعب الإغريقي القديم. وفي أواسط القرن الأول

الهجري (المقابل ما بعد منتصف القرن السابع الميلادي) وضع "القرآء العرب" قواعد النطق التي تناولوا فيها الحروف الأبجدية العربية فحددوا مخارجها من الجوف والحلق واللهاة واللسان والشفنتين والخيشوم.. وقدروا الكلام ابتداءً ووقفًا. وكانت هذه القواعد حدثاً بارزاً في تاريخ "علوم اللغة" لم يسبق لأي من الأمم الأخرى أن فكرت في وضع قواعد للنطق. والواقع أن العرب المسلمين أُلجئوا إلى التفكير في النطق بعد نزول الكتاب المقدس/ القرآن الكريم على نبيينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، ثم أخذت عنهم شعوب الأرض من بعد، وهذه صورة من صور تفاعل الحضارات.. ومساهمة كل حضارة في نتاج الحضارة الإنسانية. ويمكن إيجاز عناصر المرافعة الجيدة فيما يلي، شفوية أم تحريرية:

١- دراسة ملف القضية/ الدعوى دراسة وافية من حيث الوقائع ومن حيث القانون وصولاً إلى التكيف القانوني السليم والصحيح.. باعتبار أن المحامي هو قاضي الدعوى الأول. وإن كانت الصورة الغالبة للمرافعات الشفهية تجد مجالها الأوسع في القضاء الجنائي، إلا أن القضاء المدني والتجاري والإداري والشرعي يتسع أيضاً لفن المرافعة.

٢- لغة المرافعة الشفهية هي لغة حديث وخطابة، ولغة المرافعة التحريرية أو المذكرات هي لغة كتابة.

٣- افتتاح المرافعة يكون بمقدمة مثيرة وقصيرة.. ودبلوماسية.

٤- لا تستثير هيئة المحكمة.. ولا تغضبها، فرداً كان أم هيئة. ولا تستثير النيابة العامة.. بدون مبرر. وأختر من كلمات اللغة العربية ومفرداتها الغنية ومعانيها المتنوعة ما ينطبق على ما تريد قوله.. دون تجريح. ولكن ذلك لا يعني التذلل.. أو التملق. فكرامة المهنة وكرامة المحامي المترافع يتعين الحرص عليها.

٥- المرافعة تحتاج إلى البلاغة والفصاحة والثقافة العامة والثقافة القانونية، في إظهار وجه الحق في الدعوى، ويستحسن الاستعانة باللهجة العامية لتوضيح الفكرة أو المعنى.. ولكسر الجمود.. بما يناسب المقال والمقام بطبيعة الحال.

٦- وقار المحامي واحترامه للمنصة.. وللنيابة العامة.. ولزملائه الآخرين المدافعين عن بقية الخصوم، وحسن مخاطبتهم.. وعفة اللسان والقلم.. يضيف على مرافعة المحامي هيبةً وجلالاً واحتراماً.. له وللمهنة.

٧- المرافعة ليست معركة بين المحامي والقاضي والمحامين الآخرين أو النيابة العامة. بل هي مباراة أو مبارزة شريفة في محراب العدالة.. سلاحها قوة البيان والحجة والتدليل المنطقي.. وتحتاج إلى الحنكة والحكمة والفتنة.

٨- الإلقاء الجيد يخدم المرافعة الجيدة - بالنسبة للمرافعة الشفهية - ومن قواعد الإلقاء الجيد ما يلي:

أ- جهازة الصوت وقوته، ولا أقصد بذلك الصوت المزعج أو الصراخ.

ب- حسن مخارج الألفاظ، وتميز أو تمييز أجزاء الكلمة.

ج- تلوين الصوت وتكليفه.

د- استعمال الإشارات الدالة، دون إسفاف بطبيعة الحال.

هـ- تغيير طبقات الصوت، وتغيير معدل سرعته، وتوقفه حيناً.
و- وكثيراً ما يكون التمثيل مكملاً لصناعة المحاماة وفنها، والغير مبالغ فيه طبعاً.

٩- المرافعة: جراً في القول، فإظهار الحق يحتاج إلى الشجاعة الأدبية.

١٠- وأخيراً، العمل بالحكمة المنقوشة بأعلى جدران المحكمة العليا بروما، لتذكر المحامين المترافعين، والمكونة من أربع كلمات: "خلال : الثرثرة : تضييع : الحقيقة".

شيشرون (١٠٦ CECERO ق.م - ٤٣ ق.م). يعن لنا ونحن نتحدث عن الخطابة والمرافعة والمحاماة.. ضمن مؤتمر دولي للمحامين.. أن نتطرق إلى علم من أعلامها وهو شيشرون، وضعت عنه الأستاذة الكاتبة/ تابلور كالدويل (Taylor CALLDWELL) كتاباً بعنوان "عامود من الحديد" "A Pillar of Iron"، يقع في ٥١٩ صفحة باللغة الإنجليزية ذكرت في مقدمتها للكتاب بأن شيشرون قد لُقّب بأنه أعظم محام قانوني على مر العصور، وقسمت الكتاب إلى أربعة أجزاء: مرحلة الطفولة والشباب، والرجل والمحامي، والمحارب والسياسي، والبطل. وقد أمضت تسع سنوات من عمرها في كتابته.

ويذكره المؤرخ المشهور "ول ديورنت" في مؤلفة الضخم "قصة الحضارة" بقوله: ((ولد ماركوس تليوس شيشرون في إيطاليا عام ١٠٦ قبل الميلاد وتوفي عام ٤٣ قبل الميلاد (عاش ٦٣ عاماً) استأجر والده الشاعر اليوناني أركياس ARCHIAS ليعلم شيشرون الأدب واللغة اليونانية. ثم أرسله ليدرس القانون مع اسكيفولا SCAEVOLA أعظم رجال القانون في السوق العامة وسرعان ما أتقن الفنون والأساليب المتبعة في الخطب القانونية. وسرعان ما كان هو نفسه يشتغل بالقانون ويلقى خطباً رنانة حوت من البلاغة والشجاعة ما أكسبه شكر الطبقات الوسطى والدنيا. وحين كان حكم الإرهاب في أشده عام ٨٠ ق.م. قاضي أحد صنائع الإمبراطور الطاغية (صلاً) وشهّر به ثم سافر إلى اليونان، لعله سافر إليها فراراً من رودس حيث استمع إلى محاضرات أبولونيوس APPOLLOUNIOS في البلاغة، وعلسى محاضرات يوسيدونيوس POSEDONIOUS في الفلسفة، وتعلم من أولاهما تراكيب الجمل الرواقية المعتدلة التي نادي بها بعدئذ فيما كتبه عن الدين وفن الحكم والصدافة والشيخوخة. ثم عاد إلى روما في سن الثلاثين وألف كتاباً بعنوان القوانين أو فلسفة القوانين، ثم اشتغل بالسياسة عام ٧٥ ق.م. ولكنه عاد للمحاماة عام ٧٠ ق.م.)).

أما ما أورده واضعوا الموسوعة العربية الميسرة الصادرة عام ١٩٦٤ بالقاهرة فيمكن إيجازه فيما يلي: ((شيشرون ماركوس تولىوس: طبيب وكاتب ومحام وسياسي روماني. تلقى العلم عن خيرة اساتذة عصره في روما وأثينا ورودس. مارس المحاماة واشترك في الحياة العامة وتقلد مختلف مناصب الدولة. ناصب شيشرون الحكومة الثلاثية الأولى (قبصر وبومبي وتراسوس) عداءً شديداً وكان يدعوهم "الطغاة الثلاثة". عارض انطونيوس بشدة وألقى ضده خطباً عنيفة لقي جزاءه عنها بإعدامه في ديسمبر ٤٣ ق.م.)).

أشهر المرافعات في تاريخ ليبيا القديم والحديث

١. دفاع "أبوليوس" في محاكمته الشهيرة بمدينة صبراتة الليبية عام ١٥٨ بعد الميلاد

شهدت ساحة مدينة صبراتة عام ١٥٨ ميلادية مرافعة تاريخية عُرفت في تاريخ الأدب العالمي باسم "دفاع صبراتة" حيث ترفع لوكيوس أبوليوس المدوري" مدافعاً عن نفسه ضد من اتهمه باقتراه لجريمتين عقوبة كل منهما الإعدام. تهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد ثم تهمة ممارسة السحر الأسود. وقد كان فيلسوفاً وخطيباً وأديباً. استغرقت مرافعته (٢٠٠) صفحة وكانت قطعة أدبية وفلسفية أخاذة، أرخ لها الأستاذ الدكتور على فهمي خشيم حين أفرد لها كتاباً بعنوان "دفاع صبراتة" أورد به النص الكامل لدفاع ابوليوس المدوري في تلك القضية/ المرافعة، مع مقدمة تحليلية وتعليقات، كتبه عام ١٩٧٤ ونشرته الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ونحن نقبس منه ما يلي:

ومدينة صبراتة الليبية الواقعة في أقصى غرب ليبيا أنشأها الفنيقيون القرطاجيون في القرن الرابع قبل الميلاد، وهي واحدة من ثور ثلاث هي صبراتة وأويا ولبدة الكبرى (الخمس حالياً) التي سميت بالمدن الثلاث (TRIPOLIS) وكان العرب يعرفونها باسم (صبرة) ويعتبر مسرحها الأثري من أبداع المسارح القديمة في العام كله إن لم يكن أروعها على الإطلاق.

أما "أبوليوس" فقد ولد في مدينة مادورا (مدورة) (MADAURA) حوالي سنة ١٢٣ بعد الميلاد على شاطئ وادي "مجردة" بتونس، وكانت مستعمرة رومانية بالغة الازدهار، ولم يكن رومانياً بل كان ليبيا بالمعنى القديم للكلمة وهو يفخر بهذا كل الفخر. أرسل في صباه إلى قرطاجنة الزاهرة لينل من معين المعرفة والحكمة، وفي العشرين من عمره قصد "أثينا" مهد الفلسفة ليواصل تعليمه وفيها درس إلى جانب الفلسفة، الخطابة والهندسة والموسيقى والشعر. وترحل بين عام ١٤٣-١٥٠م، وعمل فترة بالخطابة التي كانت يومها حرفة رائجة - ليحصل على قوته.

كانت صبراتة المدينة العتيقة، ثالثة مدن طرابلس (أويا ولبدة الكبرى)، مزرعة القمح الفينيقية تتحدث عن أمر مهم.. وقد شغل أهلها بترقب هذا الأمر وهم يتحاورون في السوق والمسرح والشوارع.. ولم يتبق سوى لحظات ويندفع الجميع إلى قاعة المحكمة الرئيسية بالمدينة ليشهدوا محاكمة فيلسوف أديب بهي الطلعة، عنيد الطبع، صعب المراس، بليغ العبارة، ضليع في كل علم وفن. وبأي تهمة؟ السحر الأسود.

وسوف نرى كيف لفقت التهمة وسوف نسمع كلمات الفلسفة الصافية المتسامية، وسوف ينتصر الفيلسوف على خصومه الجهلة الحاقدين. وترتفع أصوات الجدل، ثم تخفت شيئاً فشيئاً، فإن للمحكمة جلالها، بل أن القاضي ذاته ليس قاضياً عادياً في هذه المسألة الخطرة إنه حاكم عام الإقليم نفسه.. جاء ليكون حكماً بعد أن يسمع من الطرفين أقوالهما. وكانت إجراءات التقاضي في تلك الأيام تستدعي أن يبدأ المدعى بطرح دعواه ودفاعه وطلباته وتبدأ الساعة المائتة في العد، لقياس زمن مرافعته، ثم تعدل الساعة المائتة من جديد لإتاحة الفرصة للمدعى عليه أو المتعم ل طرح دفاعه الذي سيستغرق نفس الزمن الأول.

الزمان: أحد الأيام الواقعة بين عامي ١٥٦-١٥٨ بعد الميلاد. وقبل هذا التاريخ بثلاث سنوات كان الكاتب الخطيب الفيلسوف "لوكيوس أبوليوس" في طريقه من قرطاجنة إلى الإسكندرية. وقد هبط مدينة أويا عاصمة إقليم طرابلس يومذاك، بعد انهيار زميلتها صبراته ولبدة. كانت أويا يومها مدينة مزدهرة. يتجلى فيها الفن ويعلو شأن الفكر نزل فيلسوفنا على أصحاب له في المدينة ضيفاً حيث فاجأه مرض ألزمه الفراش فبقي لديهم لبرهة من الزمن. وقد ترامى إلى سمع أحد شباب أويا وجود الفيلسوف (أبوليوس) فسرعان ما خف إلى أستاذه وصديقه. وكان الشاب الأويائي (ويدعى سكيونس بونتيانوس) قد قصد منذ سنوات مدينة أثينا ليتعلم الفلسفة والخطابة حيث قابل "أبوليوس" الذي كان هناك هو الآخر، فتوطدت الصلة بين الأستاذ والطالب.

توطدت العلاقات بين الطالب وأستاذه الفيلسوف الذي دُعي إلى إلقاء بعض المحاضرات في "ايوان أويا" وهي قاعة المدينة ليتحدث في الفلسفة والأدب والطب وتمخضت من هذه العلاقة علاقة زواج بين الفيلسوف ووالدة الطالب وتدعى (بودنتيلا) التي كانت على قدر من الجمال والمال والثقافة. لكن حساده من الأسرة أرادوا أن يلصقوا بالفيلسوف تهمة القتل العمد (بدعوى قيام الفيلسوف بتدبير قتل الشاب ربيب الزوجة) وعلى هذا الأساس قدم أبوليوس إلى المحكمة بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، وكانت عقوبتها الإعدام.

ولكن خصم الفيلسوف عندما تدبر أمر التهمة الأولى رأى أنها قد لا تؤدي إلى الغاية التي ينشدها فسحب اتهامه الأول ولكنه قدم اتهاماً أخطر وأشد فقال بأن أبوليوس ساحر ويستعين بالسحر الأسود وكانت عقوبة ذلك الإعدام أيضاً.

لم يمهل فيلسوفنا سوى خمسة أيام ليس أكثر ليعد دفاعه ويهيء رده، ويفند أدلة خصومه ويدحض حججهم. وجاء اليوم الموعود، وغصت قاعة المحكمة باشياع الخصمين وبالمتفرجين الطفيليين المنتظرين بشوق عارم هذه المسرحية. وقف خصومه أولاً وأدلوها بحججهم وقالوا فيه ما شاءوا. ثم أعدت الساعة المائية لتحسب الوقت الممنوح للفيلسوف المتهم وهو يلقي بدفاعه أمام القاضي ومعاونيه. وانتصب "لوكيوس أبوليوس" على قدميه، وانقأ بنفسه هازناً بخصومه. سوى عبائه على كتفه ثم انطلق يتحدث بلسان نرب وبيان واضح وحجة دامغة وسخرية مرة، ضاحكاً حيناً ومنفعلاً حيناً آخر، عارضا ما لديه من علم، وما حصله من أدب وما عرفه من فن، غائصاً في أعماق المعرفة البشرية، ومعلقاً في سموات الفلسفة، ومبرزاً ما له من حسنات وما للفلسفة من فضائل. وسجل على صفحات التاريخ أجمل قطعة في الأدب اللاتيني القديم، ومخلداً "صبراته" المدينة الليبية الرائعة. وعندما أوشكت الساعة المائية على انتهاء الوقت المحدد له أنهى خطبته/ مرافعته. بعدها أصدر القاضي (حاكم الإقليم) حكمه بالبراءة.

٢. قضية إبراهيم سراج الدين (١٨٨٢-١٨٩٢)

شهدت مدينة طرابلس الغرب الليبية عام ١٨٨٢ - ١٨٩٢ محاكمة سياسية جنائية لقضية أول تنظيم سياسي في ليبيا الحديثة وهي القضية المعروفة باسم قضية إبراهيم سراج الدين، التي نظرت أمام محكمة الجنايات الكبرى بمدينة طرابلس الغرب المؤلفة من خمس قضاة، ترفع فيها أول الأمر المحامي محمد بن محمد أبو ربيع عن المتهم إبراهيم

سراج الدين. ثم ترفع فيها المحامي محمد تحسين أفندي الذي ترفع مدافعاً عن زميله المحامي محمد أبو ربيع الذي زُجَّ به متهماً في القضية.

والمتهم إبراهيم سراج الدين ولد ونشأ في المدينة المنورة وطوف ببعض البلاد، ومر بمدينة بنغازي ثم استقر بمدينة طرابلس حيث أسس "قراءة خانة" - أي صالة أو منتدى لمطالعة الكتب والجرائد - للمدنيين ثم أخرى للعسكر، وألقى خطبة الجمعة في جامع الناقة بالمدينة القديمة لم ترق للسلطة آنذاك، ووثائق هذه القضية محفوظة بالكامل بدار المحفوظات التاريخية بالسراي الحمراء بطرابلس. وقد قام بدراستها وتسليط الضوء عليها المرحوم الأستاذ أحمد صدقي الدجاني في كتابه الذي اختار له عنوان "بدايات اليقظة العربية والنضال الشعبي في ليبيا، وقائع محاكمة أول تنظيم سياسي في ليبيا".

ونورد فيما يلي الجزء الذي عثرنا عليه من مرافعة المحامي محمد تحسين أفندي:

"... قال الوكيل محمد تحسين أفندي خلاصته محاكمة إبراهيم سراج عبارة عن شئنين أحدهما ما كان سبباً في حبسه والثاني ما أحدثه وهو في الحبس مما تعلمونه، أما الأولى فأقول عليها أنه لم يتصدى إلا لفتح قرأت خانة وذلك غير ممنوع كما أن التعليمات التي نسبت إليه لم يكن بها ما يوجب الاختلال المتصور وغايت ما فيها هو الحث على جلب الناس إلى دائرة المدينة وأما أجوبته التي قيل عنها أرسلت إلى القناصل فعلى فرض ثبوتها إنها منه فلا يحفى أن المحبوس يلتجئ بكل أحد وأما ما أدعاه الآن من النبوة وما شاكلها فهذا علامة على سلب جوهر عقله ولا يخفى أن مادة إحدى وأربعين من قانون الجزاء عفت عن مجازاة مثله.

وفي مضبطة الجلسة الأخيرة لتلك القضية بفرعيها المنعقدة يوم ذي القعدة ١٣٠٩ هـ الموافق ٢٨ مايو ١٨٩٢ ورد ما يلي: ((قرىء جهرأ تقرير طبيب البلدية المعطى بتاريخ ١١ نيسان ١٣٠٨ هـ الموافق ٢٣ أبريل بأن المتهم الشيخ إبراهيم سراج الدين توفي بالدرن الرئوي الذي أبطل به وهو في السجن، ولذلك فلا حاجة لمتابعة الدعوى وتقرر إسقاط الحقوق العامة عنه. توقيعات القضاة: محمد مختار حسان، المجراب، حسن كرجي، بانون، كامل الصلح.

٣. محاكمة رمضان السويحلي التي بدأت بطرابلس عام ١٩٠٩ وانتهت بجزيرة رودس:

شهدت مدينة طرابلس الغرب أيضاً عام ١٩٠٩ محاكمة غير عادية أمام محكمة جنابات طرابلس الكبرى هي محاكمة رمضان السويحلي الشيتوي، ووالده الشيتوي بن مفتاح، وأخيه أحمد وأثنين آخرين من سكان مدينة مصراته حيث اتهموا بقتل أحد المواطنين الذي وجد مقتولاً بعين كعام عام ١٩٠٩، توفي والد رمضان وأحمد السويحلي بالسجن في سنة اعتقالهما بمرض الحمى، وبدأت المحاكمة للمتهمين الأربعة بعد انتهاء إجراءات التحقيق معهم. ترفع عن المتهمين الآخرين المحامي قدرى أفندي الجزائري، وترافع عن رمضان وأخيه أحمد المحاميان الشيخ عبد الله عريبي بانون المحامي وكمال بك المحامي، ودفع الدفاع بعدم حيدة شهود الإثبات الذين أحضروا أمام المحكمة وبأن شهادتهم كانت ملقنة، وعندما استشعرت هيئة المحكمة ذلك وتحسبها لوجود قرائن لمحاولة التأثير على هيئتها، وبناء على طلب الدفاع الذي طالب ضمناً لحسن سير المحاكمة بإحالتها على محكمة جنابات أخرى خارج الولاية فكانت أن أحيلت إلى

محكمة جنايات جزيرة رودس التي كانت تابعة آنذاك للدولة العثمانية. ولما اعتذر المحامي عبد الله بانون عن السفر إلى جزيرة رودس تولى المحامي مصطفى شاكرا أفندي أدريبيكة استكمال الدفاع عن رمضان وأخيه أحمد أمام محكمة جنايات رودس، وقد أصدرت تلك المحكمة حكمها ببراءة المتهمين مما نسب إليهم لعدم كفاية الأدلة.

٤. محاكمة شيخ المجاهدين عمر المختار (١٩٣١):

شهدت مدينة بنغازي يوم ١٥/٩/١٩٣٣ محاكمة تاريخية .. هي محاكمة عمر المختار، أحد أبطال المقاومة الليبية للاحتلال الإيطالي وشيخ شهدائها. وقد أبلى فيها النقيب بجيش الاحتلال الإيطالي "روبرتو لونتانو" المنتدب للدفاع عنه أمام المحكمة العسكرية الفاشستية التي شكلت لمحاكمته، بلاءً حسناً.. حيث ترفع عنه مرافعة لن ينساها التاريخ. نورد نصها الكامل كما أورها الجنرال جراسياني في كتابه بعنوان برقة المهذّعة وهو الخصم اللدود لعمر المختار:

.. ثم وجه القاضي السؤال إلى المحامي المنتدب للدفاع عن عمر المختار إذا كان لديه ما يعلق به على كلام المدعي العام والتهم الموجهة إلى موكله وكان في اعتقاد القاضي أن المحامي سيؤيد كلام النائب العام ولكن المحامي خيب ظنه ودافع عن المتهم دفاعاً حقيقياً وهذا نصه:

المحامي - النقيب لونتانو - سيدي القاضي إن هذا المتهم الذي انتدبت للدفاع عنه وكنت متردداً في أول الأمر ولكن ضميري حدثني بأنها إنسانية مني لأبد من قبول الدفاع وها أنا أفأ أمامكم. لو أنني التقيت بهذا الرجل في الشارع لم أتردد لحظة في سحب مسدسي هذا وإطلاق النار عليه حتى أريده قتيلاً لأنه عدوي وعدو دولتي، غير أن الذي أريد أن أقوله أن هذا الرجل عمر المختار يدافع عن حقيقة كلنا نعرفها، وهي الوطن وكم ضحينا نحن في سبيل الوطن وتحريره.

القاضي - أري أن المحامي غير من رأي المحكمة وهنا أحتج المدعي العام، وفعلاً القاضي أمر المحامي بأن لا يخرج عن الموضوع ويتكلم بإيجاز، وهنا تكلم المحامي بحدة وقال: هنا محل الشرح الكافي إذا كنا رجال العدالة الحقيقية. أما إذ كنا غير ذلك فيجب أن نترك الموضوع وأحكموا بمفردكم ولا لزوم لهذه المحكمة وجلستها:

إن عمر المختار الذي هو أمامكم وليد هذه الأرض قبل وجودكم فيها ويعتبر كل من احتلها عنوة عدو له ومن حقه أن يقاومه بكل ما يملك من قوة حتى يخرج منه أو يهلك دونها هذا حق أعطته له الطبيعة الإنسانية، وهنا كثر الصياح من الحاضرين بإخراج المحامي وإصدار الحكم على المتهم الذي طالب به المدعي العام. ولكن المحامي استمر قائلاً العدالة الحق لا تخضع لأي سلطان ولا لأية غوغاء وإنما يجب أن تتبع من ضميرنا وإنسانيتنا. وهنا قامت الفوضى خارج المحكمة، وقام المدعي العام محتجاً على المحامي، ولكن المحامي استمر في دفاعه غير مبال بكل هذا بل حذر القاضي على أن يحكم ضميره قائلاً: إن المتهم عمر المختار الذي انتدبت من سوء حظي أن أدافع عنه شيخ هرم حنت كاهله السنون وماذا بقي له من العمر بعدما أتم السبعين سنة إنني أطلب من عدالة المحكمة أن تكون رحيمة في تخفيف العقوبة عنه لأنه صاحب حق ولا يضر العدالة إذا أنصفته بحكم أخف وإنني أطلب أن تحذر عدالة محكمتمكم حكم التاريخ لأنه لا

يرحم فهو عجلة تدور وتسجل كل ما يحدث في هذا العامل المضطرب.. وهنا كثر الضجيج في الخارج ضد المحامي ودفاعه. ولكن المحامي استمر في دفاعه قائلاً:

المحامي - سيدي القاضي حضرات المستشارين - لقد حذرت المحكمة من مغبة العالم الإنساني والتاريخ وليس لدي ما أضيفه إلا طلب تخفيف الحكم على هذا الرجل صاحب الحق في النود عن أرضه ودينه وشكرًا.

عندما قام النائب العام لمواصلة احتجاجاته قاطعه القاضي برفع الجلسة للمدولة. وبعد مضي فترة قصيرة من الانتظار دخل القاضي والمستشارين والمدعى العام، بينما المحامي لم يحضر تلاوة الحكم القاضي بإعدام عمر المختار شنفًا حتى الموت وعندها ترجم الحكم إلى عمر المختار قهقه بكل شجاعة قائلاً: الحكم حكم الله لا حكمكم المزيف.

ومن المعروف أن بطل المقاومة الشعبية الليبية عمر المختار كان قد وقع أسيراً في يد قوات الاحتلال الإيطالي في يوم ١١/٩/١٩٣١ عندما وقع الجواد الذي كان يمتطيه جريحاً بمعركة حربية جرت في الجبل الأخضر بشرق ليبيا يقال لها "عين لافو" فسميت المعركة بمعركة عين لافو، بالقرب من بلدة "اسلنطة". ثم اقتيد الأسير إلى معسكر مدينة سوسة حيث قضى ليلته، رُحّل بعدها إلى مدينة بنغازي صباح اليوم التالي على ظهر الطراد الإيطالي ORSI. وقد جرى بين الأسير عمر المختار وبين سجانته الملازم بالجيش الإيطالي "ليفي" ليلة أسره بمعسكر مدينة سوسة حواراً ودياً قيماً. وحين وصل الطراد ORSI إلى مدينة بنغازي، اقتيد الأسير المهاب إلى سجن بنغازي الرئيسي تحت حراسة مشددة. حيث جرى بينه وبين مدير السجن وشخصية أخرى حواراً "مقتضباً". ثم أجرى قاضي التحقيق العسكري مع الأسير محضر استجواب. وصباح يوم ١٥/٩/١٩٣١ كان موعد الحوار الشجاع الذي جرى بين الأسير عمر المختار والجنرال الإيطالي - حاكم برقة العسكري - جراسياني بمقر القيادة العسكرية الإيطالية بمدينة بنغازي. وفي مساء ذات اليوم عقدت المحكمة العسكرية الإيطالية عند الساعة الخامسة مساءً بقصر "الليثوريو" بمدينة بنغازي الذي تم إعداده كقاعة لجلسات المحكمة الخاصة بالدفاع عن أمن الدولة حيث بدأت باستجواب المتهم الأسير استجواباً تاريخياً موثقاً، ثم تلاوة صحيفة الاتهام التي احتوت (١٦) تهمة، ثم مراعاة الادعاء، تلتها مراعاة الدفاع، بعدها رفعت الجلسة لتعود للانعقاد لينطق رئيس المحكمة بإعدام الأسير عمر المختار بالإعدام شنفًا. وقد تم تنفيذ حكم الإعدام شنفًا صبيحة اليوم التالي ١٦/٩/١٩٣١ بصحراء سلوق بحضور أكثر من عشرون ألف مواطن ليبي من شيوخ ورجال ونساء وأطفال أرغموا على مشاهدة عملية الإعدام شنفًا، وسط آلاف جنود الاحتلال المدججين بالسلاح وبدأ المسرح الذي أريد له أن يكون جنازة وقد غدا عرساً وطنياً وتاريخياً حيث ترجل عمر المختار من سيارة السجن إلى منصة الشنق بكل ثبات ويقين، وكان مشهداً ما يزال غائراً في وجدان الليبيين والليبيات، وكل عشاق الحرية، جسده بكل دقة الأستاذ المرحوم مصطفى العقاد في شريطه السينمائي المعروف الذي عرض ويعاد عرضه على العديد من القنوات التلفزيونية.

بعض المراجع العلمية الأساسية للبحث

- ١- مؤلف "قصة الحضارة" لمؤلفه (ول ديورانت). وهو كتاب ضخيم يحتوى على (٢٦) ستة وعشرين مجلداً أعده مؤلفة باللغة الإنجليزية.
- ٢- "الموسوعة العربية الميسرة"، نشرت طبعتها التجريبية عام ١٩٦٤.
- ٣- كتاب ابن رشد "تلخيص كتاب الخطابة لأرسطو" حققه وقدم له أ.د. عبد الرحمن بدوي طبعة ١٩٦٠.
- ٤- كتاب أفلاطون "فن الخطابة" ترجمة أ.د. عبد الرحمن بدوي.
- ٥- كتاب أ.د. صوفي أبو طالب "تاريخ القانون".
- ٦- كتاب الأستاذ عبد الوارث عسر، الممثل المسرحي المخضرم "فن الإلقاء" الصادر عن الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة عام ١٩٦٥.
- ٧- كتاب أ. حامد الشريف المحامي "فن المرافعة وصناعة المحامي المترافع أمام المحكمة الجنائية" الدار البيضاء للطباعة والنشر عام ١٩٩٣ القاهرة.
- ٨- "موسوعة المحامي العربي" بطبعتيها الأولى ١٩٨١-١٩٨٤ والثانية ١٩٨٩ عن منشورات السلفيوم بنغازي لكاتب هذه المقالة.
- ٩- "المحاماة في ليبيا.. تاريخاً واقعاً وتطلعاً جزأين، عن منشورات السلفيوم ١٩٩٩ لكاتب هذه المقالة.
- ١٠- "وقائع أسر ومحاكمة وشنق عمر المختار" عن منشورات السلفيوم ٢٠٠٣ لكاتب هذه المقالة.